﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ [الأنعام: 15]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

استكمال بيانِ أنَّ الشِّركَ بالله العظيمِ، جزاؤُه العذابُ الأليمُ

الآيةُ استئنافٌ مكرِّرٌ لما قبلَهُ، وهو تدرُّجٌ في الغرضِ المشترك بينهما، فبعدَ أن ذكرَ في الآيةِ السّابقةِ أنَّه أوَّلُ من أسلمَ لدين الله سبحانه، وأنَّه أمرَ أن يتجنَّبَ الشِّركَ وأهلَه؛ بيَّن في هذه الآية خوفَه من عظيمِ العذابِ يومَ القيامة[1]، يوم يُجمَعُ النّاس إليه، ويُحشرون من أجداثِهم ومن كلِّ مكانٍ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَخَافُ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (خوف)، والخَوفُ: ضدُّ الأَمن، خافَ يخاف خوفًا[2]. والخوفُ: الفزع[3]، وخَوَّفتُ الرَّجلَ: جعلت فيه الخَوفَ، والخيفةُ: الخوف[4].

2) ﴿عَصَيْتُ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (عَصَوَ)، عَصَى يَعصي عِصيانًا ومَعصية، والعاصي: اسم الفصيلِ خاصَّةً؛ إذا عصى أمَّه في اتِّباعها[5]. وعصى عِصيانًا؛ إذا خرج عن الطّاعةِ، وأصلهُ أن يتمنَّعَ بعصاه، قال: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾ [طه: 121][6]. يقالُ: عَصا؛ إذا صَلُبَ واشتدَّ، واستعصى عليه الشَّيءُ: اشتدَّ، واعتصَتِ النَّواةُ قاصر: اشتدَّت، ومن هذا جاء العِصيانُ، فأصلهُ الصَّلابةُ وعدمُ الانثناءِ أو الانقياد، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [إبراهيم: 36][7].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/160.
(2) ابن دريد، جمهرة اللغة: (خوف).
(3) ابن سيده، المُحكم: (خوف).
(4) الخليل، العين: (خوف).
(5) الخليل، العين: (عصو).
(6) الراغب، المفردات: (عصا).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عصا).

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تجنُّبُ المعصيّة، طَمعًا في رحمةِ الله، وخوفًا من عقابِه

أمرَ اللّهُ نبيَّه أن يتابعَ البيانَ عن جزاءِ من يخالفُ أمْره لهؤلاء المشركين مع اللّهِ غيره بالأسلوبِ السّابق نفسهِ بأن يقولَ: إنّي أخافُ إن عصيتُ ربي، فخالفتُ أمرَهُ، وأشركتُ معه غيره في عبادتهِ، أن ينزلَ بي عذابٌ عظيم يوم القيامةِ، والكلامُ مسوقٌ على جهةِ الفَرْضِ، أي: على فَرْضِ ظهور العِصيان منّي، وهو لونٌ من ألوان شدَّةِ البيان، أو تحقُّق الخوفِ على كلٍّ من عصى، على نهجِ القرآنِ في مثله. وفي الآيةِ إشارةٌ إلى أنَّ هذا اليومَ لا محاباةَ فيه لأحدٍ مهما كان عظيمًا، وأنَّهُ منوطٌ بالأعمال[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

وجْهُ التَّرقّي في رفضِ الشِّركِ، بفعلِ الأمرِ ﴿قُلْ﴾:

الارتقاءُ في مَدارجِ الإيمانِ، تجنُّبٌ للشِّركِ وأهلِهِ

هذا استئنافٌ مكَرِّرٌ لما قبلَهُ، وهو تدرُّجٌ في الغرضِ المشتركِ بينها، من أنَّ الشِّركَ باللّهِ متوعَّدٌ صاحبُه بالعذابِ، وموعودٌ تاركُه بالرَّحمةِ، فقوله: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ الآيةُ: رفضٌ للشِّرك بالدَّليلِ العقليِّ، وقوله: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ الآية، رفضٌ للشِّرك امتثالًا لأمرِ اللّهِ وجلالهِ، وقوله هنا: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ﴾ الآية تجنُّبٌ للشِّرك خوفًا من العقابِ وطمعًا في الرّحمةِ، وقد جاءتِ الآياتُ مترتِّبةً على ترتيبها في نفسِ الأمرِ[2]. وهو من قبيلِ التَّرقّي في رفضِ الشِّرك بحسبِ الغرض الَّذي سيقت من أجله العباراتُ المُتواليةُ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ ﴿إِنْ﴾ الشَّرطيَّةِ دون (إذا):

لا يمكنُ أن يَعصيَ الأنبياءُ ربَّهُم؛ لأنّ هذا مُستحيلٌ في حقِّهم

قوله: ﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ (إذا) تتضمَّنُ معنى الشَّرط، وهي كـ (إنْ)، ويفترقان في أنَّ (إنْ) تُستعمَلُ في المُحتَمَلِ المَشكوكِ فيه،

(1) الموصلّي، أولى ما قيل: 3/293، ونخبة من العلماء، التفسير الميسَّر، ص: 129.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/160.

والمَوهومَةِ والنّادرة[1]، والمُستَحيلَةِ وسائر الافتراضاتِ الأخرى، فهي لتعليقِ أمرٍ بغيرِهِ عمومًا، فمِنَ المَعاني المُستَحيلَةِ قولهُ تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الزّخرف: 81]، فاستعملَ أداةَ الشَّرطِ (إنْ) في قوله: ﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾، فجعل ذلك من الأمور مُستَحيلَة الوُقوع؛ إذ لا يمكن أن يعصي الأنبياءُ ربَّهُم سبحانه.

فائدةُ صيغةِ الماضي في قولِه تعالى: ﴿عَصَيْتُ﴾:

إبـرازُ المـاضِي في صُورةِ الحاصلِ؛ لـلـتَّـنـفـيرِ مـنَ الشِّركِ

لفظةُ ﴿عَصَيْتُ﴾: عامَّةٌ في أنواع المعاصي، ولكنَّها ههنا إنَّما تشير إلى الشِّركِ الَّذي نُهيَ عنه[2]، والخوفُ ليس بحاصلٍ لعصمتِهِ؛ بل هو معلَّق بشرطٍ هو ممتنع في حقِّهِ ﷺ وجوابهُ محذوفٌ وجوبًا[3]. واستخدمَ هنا ﴿إِنْ﴾ الدّالَّةَ على احتمالِ وقوع مدخولها، وهو هنا جرْيٌ على العادة، لكنَّ المعصيةَ ممتنعةٌ عليه ﷺ، وفي التَّعبيرِ بالماضي ﴿عَصَيْتُ﴾ إبرازٌ له في صورةِ الحاصلِ على سبيل الفرضِ، ومعلومٌ أنَّ خوفَ المعصوم من المعصية لا يُنافي العِصمة.

وجهُ الكنايةِ في العُدولِ عنِ اسمِ الجلالةِ إلى ﴿رَبِّي﴾:

الاسـتـسـلامُ للـهِ ركـونٌ إلى ربِّ المخلوقاتِ جميعِها

يفهمُ من قولهِ: ﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ أنَّ الآمرَ له بأن يكون أوَّلَ من أسلمَ والنّاهي عن كونِهِ من المشركينَ هو الله تعالى، وفي العدول عن اسم الجلالةِ إلى قوله: ﴿رَبِّي﴾ إيماءٌ إلى أنَّ عصيانَه أمرٌ قبيحٌ؛ لأنَّه ربُّه، فكيف يعصيه؟ ففي قوله: ﴿رَبِّي﴾ كنايةٌ عن الولاءِ لله والاستسلام إليه سبحانه.

بلاغةُ الإطنابِ والإيغالِ في لفظ ﴿يَوْمٍ﴾:

جُعلتِ القيامةُ يـومًـا، لتأكيدِ حتميَّةِ قُدومِها

كان من الممكن أن تكونَ صيغةُ الكلامِ: (عذابًا عظيمًا)، لكنَّهُ ذكرَ اليومَ هنا إطنابًا في التَّعبيرِ وإيغالًا في المرادِ، وفائدةُ ذلك بيانُ

(1) الزّركشي، البرهان: 2/360.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/321.
(3) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/457.

أنَّ هذا اليومَ وعدٌ محتومٌ، فكما تأتي الأيامُ المشهودةُ على النّاس في الدُّنيا، فسيأتي هذا اليومُ حتمًا على النّاس في الآخرةِ، ويوفَّى كلٌّ حسابَه، وفيهِ كذلك عظيمُ تهويلٍ من شديدِ العذابِ.

الوجهُ البلاغيُّ في وصْفِ ﴿عَذَابَ﴾، بأنّه ﴿عَظِيمٍ﴾:

إضافةُ العذابِ إلى اليومِ العظيمِ، تَستلزمُ عِظَمَ ما يَقعُ فيهِ

قوله: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾: أضيفَ العذابُ إلى (يوم عظيم) تهويلًا له؛ لأنَّ في معتادِ العربِ أن يُطلقَ اليومُ على يومِ نصرِ فريقٍ وانهزامِ فريقٍ من المُحاربين، فيكونَ اليومُ نكالًا على المنهزمين؛ إذ يكثرُ فيهم القتلُ والأسرُ، ويُسام المغلوبُ سوءَ العذاب، فَذِكْرُ (يوم) يُثير من الخيال مخاوفَ مألوفةً، ولذلك قال اللّهُ تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾ [الشعراء: 189]، ولم يقل: عذابُ الظلَّةِ إنَّه كان عذابًا عظيمًا، وبهذا الاعتبارِ حَسُنَ جعلُ إضافةِ العذابِ إلى اليومِ العظيمِ؛ كنايةً عن عِظَمِ ذلك العذابِ؛ لأنَّ عظمةَ اليومِ العظيمِ تستلزمُ عِظَمَ ما يقعُ فيه عرفًا[1].

بلاغةُ الاعتراضِ، بالجملةِ الشَّرطيَّةِ المحذوفةِ الجوابِ:

وجهُ وصفِ (العذابِ)، بكونهِ عظيمًا

قوله: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، أصلُ التَّركيبِ: قل: (إنّي أخافُ عذابَ يومٍ عظيم)، لكنَّه اعترضَ بجملةِ الشَّرطِ ﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى﴾، وهذه الجملةُ الشَّرْطيَّةُ - لا موضعَ لها من الإعرابِ، كالاعتراضِ بالقَسَم - اعتراضٌ بين الفِعْل وهو ﴿أَخَافُ﴾ وبين مفعولِه وهو ﴿عَذَابَ﴾، وليس ﴿أَخَافُ﴾ جوابه، لكنَّه دليلُ جوابِه على الرّاجح[2]، والتَّقدير: إن عصيتُ أَخَفْ، وكأنَّ التَّعبيرَ بالخوفِ مرَّتين، المرَّة المصرَّح بها، وعلى التَّقديرِ في جوابِ الشَّرطِ، ممّا يدلُّ على عظيمِ الخوف، ففي الكلام مبالغةٌ في قطعِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 7/160.
(2) السّمين، الدّر المصون: 4/559.

أطماعِهم، وتعريضٌ باستحقاقِهم العذابَ لكونهم عُصاةً[1]. ولمّا كان عظمُ الظَّرفِ بعظمِ مظروفِه، قال: ﴿عَظِيمٍ﴾، وهو عظيم، بما فيهِ من أمورٍ تحصلُ يوم القيامةِ، من تجلّي الله ﷻ، وحسابه وعقابه، والتَّنكيرُ في اللَّفظ للتَّعظيم، فهذا العذاب ذو عظمةٍ متكرِّرةٍ.

بيانُ التَّشابهِ اللَّفظيِّ بين آيةِ الأنعام: (15)، وآيةِ يونس (15):

دَأْبُ المُشركين في جميعِ الأزمنةِ؛ إحداثُ التَّبديلِ في الدِّينِ، لمعانَدةِ ربِّ العالمين

في الآية تطابقٌ لفظيٌّ مع قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥﴾ [يونس: 15]؛ إذ تضمَّنَتْ آيةُ الأنعامِ الأمرَ من اللهِ بالقَول، أمّا آيةُ يونس ومن خلال سياقها؛ فتحكي قول رسول الله ﷺ وطاعته لله تعالى، واتِّباع ما يوحى إليه من اللهِ سبحانه، فيتَّضح من سياقِ الآيتين أنَّ آيةَ يونسَ قد فَسَّرتْ ما ورد في آية الأنعام وما قبلها، فقوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ فسَّرتها آيةُ يونس بقوله: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥﴾ [يونس: 15]، فما ذُكِرَ في هذه الآية يُظهِرُ دعوةَ المُشركين إلى تَبديلِ ما أوحيَ إلى الرَّسولِ، والتَّبديلُ بذاتِهِ إشراكٌ باللهِ أو هو انعكاسٌ للإشراكِ باللهِ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/116.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد العاشر، سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 10 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-62-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 10 : سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-798-62-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7560922 بتاريخ 2023/12/18م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»